المحاضرة الثانية: نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني، ومفهوم توخي معاني النحو

د باديس لهويمل قسم الآداب واللغة العربية، ديسمبر ٢٠٢٠

البحث في نظريّة "النظم" لعبد القاهر الجرجاني شيق ومثير،وهي نظرية تبحث في مواطن الإعجاز البياني في القرآن الكريم، كيف لا وهي نظرية شاملة تحاول تقنين النظام العام الذي يحكم الجملة، ويرتقي بها إلى النّص، استنادا إلى مباحث نحوية وبلاغية، مما جعلها تقف بكبرياء اليوم أمام الدراسات الحديثة، لما تحويه من نظرات ثاقبة، ومباحث دقيقة، بقوانينها وأساليبها، توصّل إليها مبدعها" الشيخ عبد القاهر الجرجاني"(ت٦٢٦هـ) محاولا من خلالها تلمُّس مواطن الإعجاز في القرآن الكريم.

وقد تولّد مصطلح "النظم القرآني"، نتيجة بحث علماء العربية القدماء في إعجاز القرآن الكريم، فتدارسوا طرائق نظمه وتأليفه وقارنوها بالأشعار العربية التي بلغت الذروة السامقة في صياغتها وتركيبها، وكان تركيزهم منصبا على الجانب البلاغي متساوقا مع الجانب النحوي.

هذا الوضع ولّد كما قلنا مصطلح "النظم"، وتطورت الأبحاث والدراسات فيه، حتى استقر نظرية استقامت على عودها مع عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وصار نظرية تبحث إعجاز القرآن الكريم، في تراكيبه وصياغاته، وبيانه، وسياقاته الاستعمالية، ومن خلاله بحث المعنى وكيفية ضبطه وفهمه.

هذه النظرية التي نجدها تتقاطع اليوم مع كثير من الدراسات اللسانية الحديثة ومدارسها: لسانيات عامة، دلالة أسلوبية لسانيات نص وتداولية...

ولعل هذا ما يدفعنا لطرح السؤال: ما المقصود بنظرية النظم؟ وكيف يمكن لها أن تتحقق؟ وما هي معالمها وأنشطتها؟ وما مدى إسهامها في إثراء البحث اللغوي والأدبي ؟

شكل البحث عن سر الإعجاز القرآني، محور الدراسات اللغوية العربية، خاصة البلاغية منها، بعد اختلاط العرب المسلمين في شبه الجزيرة العربية بالأعاجم،

وصار البعض منهم لا يتقن العربية الفصحى ولا إعجازها بعد أن كان يتكلمها، ويفهم لغة القرآن الكريم وإعجازها فيه عن فطرة وسجية.

هذا الوضع الجديد هو الذي انطلق منه الباحثون يتدارسون القرآن الكريم لإثبات وقوع الإعجاز فيه، خاصة في جانبه البياني، فكان أن تولّد مصطلح النظم القرآني المعجز في ألفاظه وتراكيبه، وغدت فكرة النظم نظرية تطوّرت عند علماء اللغة العرب حتى استقرّت واكتمل عودها مع عبد القاهر "الجرجاني"[١] في كتابيه دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة".

أولا: النّظم عند عبد القاهر الجرجاني:

يعد عبد القاهر الجرجاني في التراث اللغوي العربي، بما خلفه من مؤلفات شخصية فذة ساهمت في الدراسات اللغوية بأبحاث قيمة تحولت مع الزمن إلى ميدان ثر للدرس والتحليل، خاصة في نظرية "النظم" التي تلمّس من خلالها الإعجاز في القرآن الكريم مستفيدا من جهود سابقيه، ليصل إلى أن النظم لا يكمن في الألفاظ وهي منعزلة، لأنّها مألوفة معلومة ولها معنى معجمي واحد، لكن تثبت لها المزية والفضيلة حين دخولها التركيب في سياق معين اعتمادا على ما يجاورها، وبتأثير منه في عملية الاختيار حتى تتناسب مع المقام، فتكتسب وجوها عدة متفاوتة، ولذلك« ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارا وأمرا ونهيا... وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبتيها على ما هي موسومة به»[٢].

فالألفاظ لا توجب الإعجاز وحدها لأنها ليست غريبة على العرب، وكذلك المعنى بل الإعجاز يمكن في النظم الذي يراعي معاني النحو والملاءمة بينها وبين المعاني النفسية في تركيب الكلام.

يقول الجرجاني: « **اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ**

عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر، في وجوه كل باب وفروقه. »[٣].

يشكل هذا النص جزءا مُهمًا من نص نفيس أعتبره مفتاحا مهما لنظرية النظم التي لها وجوه عديدة بينها فروق في المعنى وكيفية أدائه، بيّنها الجرجاني وحاول من خلالها توضيح مناط إعجاز القرآن في وجوه التراكيب وما بينها من فروق في الأداء ، وكشف بها مدى ثراء اللغة في معانيها، واستغرق شرح النص من عبد القاهر الجرجاني كتاب "الدلائل" كله، ومن هذه الوجوه "ما يتعلق بعلم الدلالة والبلاغة وعلم الأسلوب ومنها ما يتعلق باللسانيات"[٤] إضافة للنحو مرجعيته الأساسية، ولعل هذا ما جعل الدارسين يوظّفون مفهوم **النظم** حسب مجال تخصصهم نحو ودلالة، وسيمياء، وبلاغة وأسلوبية، ولسانيات نص، وتداولية، ويصلون إلى نتائج باهرة خاصة مع علماء لسانيات النص والتداولية، فقد نفذ عبد القاهر الجرجاني في مباحث نظريته إلى كثير من ظواهر اللغة وتناولها بعمق وبكيفية بيّنت أهمية هاته اللغة في تحديد المعنى وضبطه بإحكام، على غرار ما نجده في تراكيب القرآن الكريم المعجزة تركيبا ودلالة وبيانا، وقد أكدت كثير من الدراسات اللسانية الحديثة ما ذهب إليه الجرجاني في طروحاته، من ذلك نفاذه إلى صميم الظاهرة النصية، بحيث تظهر واضحة دلائل الدراسة النصية عنده، فهو يدعو صراحة إلى توخي معاني النحو، ومعاني النحو لا تقف عند الجملة وحدودها، بل تتجاوزها لما بين الجمل من ترابطات وتعالقات نصية؛ حيث يرى أن "**من أسرار البلاغة العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض**"[٥]، ثم يتكلم عن أهمية حروف العطف ومعانيها، وما تُسهم به في الربط بين الجمل لتكوين النص، وما النص كما يرى فان دايك(Van dijk)، إلا تتابع مترابط من الجمل[٦]، وهو نفس رأي "بوينكر"، مع شرط وجود الانسجام بينها، وبالتالي نصل إلى مفهوم واضح للدراسة النصية عند الجرجاني؛« فحين تجاوز هاريس Z.S Harris بالتحليل، حدود الجملة، وجعله يمتد ليشمل علاقة الجملة بالجمل التي ترد متعاقبة، وهو ما أصبح يعرف من بعد موضوع، علم قائم برأسه هو علم لغة النص...حين فعل ذلك، وصل في القرن العشرين إلى ما وصل إليه عبد القاهر قبله بتسعة قرون وزاد عليه عبد القاهر إدراكه

للمعاني الإضافية الناتجة عن الصياغة النحوية وما تؤدي إليه من فروق في الأداء»[٧].

هذه الفروق التي تتضح جليا في هذا النص المفتاح الذي يمثل مركزا تطرّق فيه الجرجاني لمختلف المسائل اللغوية المتعلقة بالدراسة النصية والظاهرة التبليغية، مبينا من خلالها مدار الإعجاز القرآني فيها.

والملاحظ في نظرية النظم للجرجاني وجود ثلاثة مصطلحات أساسية: **الوجوه، الفروق، الموضع**، يجب مراعاتها ليتم التبليغ، ذلك أن للغة إمكانات متعددة للتعبير عن مختلف المعاني، ولا يتأتى هذا إلا لمن خبر اللغة وأسرارها، فيتمكن من جعل خطابه يراعي المقام ويتوافق معه، فيوصل المعنى منطلقا في كل هذا من مراعاة أغراض المتكلم وأحوال الخطاب[٨].

تمثل الوجوه هنا البنية الشكلية بينما الفروق المعنى الدلالي العميق، فنجد للخبر وجوها متعددة يحددها المقام، وللحال كذلك فروق بين وجوهه، وللشرط كذلك وجوه وشروط مرتبطة بالمتكلم والأمر نفسه يحدث في الفروق بين أدوات الربط، ومراعاة كل هذه الدقائق في الكلام حسب المخاطبين وأغراض الخطاب، يسهم في تحقيق النظم، والاقتراب من الإعجاز القرآني دون تلمّسه.

ولعل أهمّ ما تقوم عليه نظرية النظم عند الجرجاني هو مبدأ " توخي معاني النحو، فماذا يقصد به الجرجاني ؟

ثانيا: توخي معاني النحو عند الجرجاني: يقول الجرجاني: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تُخِلَّ بشي منها"[٩].

يبدأ الجرجاني في هذا الجزء مباشرة في توضيح معنى النظم بفعل كلامي "اعلم" لينجز من خلاله أداء لمعنى "النظم"، وهو **فعل كلاميّ فيه إستراتيجية توجيهية تعمل على جلب المتلقي قصد إفهامه معنى النّظم، وبيان كيفية تحقيقه في الخطاب**، فيرى أنه–النظم– يتحقق من خلال إدراك المعاني النحوية، فيربط بين النحو والنظم ويجعلهما متلازمين ومتوافقين، ويقصد الجرجاني "بالوضع الذي

يقتضيه علم النحو"، توخي المعاني النحوية فيربط بين إدراك المعاني النحوية والمعاني النفسية داخل التركيب، فإذا تم ذلك تحقق النظم، « وإحداث هذا التوافق بين المعاني النفسية والتراكيب الدالة عليها لا يتم إلا بمعرفة عميقة للوظائف النحوية لأدوات النفي، أو أدوات الشرط أو أدوات النداء أو الاستفهام، وما يمكن أن يحدثه وضع أداة مكان أداة من تغيير في المعنى، وكذلك ندرك أثر نوعية الكلمة وموقعيتها في المعنى، فالكلمة المعرفة غير الكلمة المنكرة"(١٠).

لذلك أكد الجرجاني على وضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو والعمل على قوانينه وأصوله دون خروج عنها، وأورد الفروق بين وجوه الخبر، ووجوه الحال، والشرط، والأدوات، وإدراك الجرجاني لهاته القضايا وفروق الأداء اللغوي باستعمالاتها، وكذا علم النحو الذي يتجاوز قضايا الرفع والنصب والجر إلى معاني النحو، جعل له أثرا بارزا في خدمة، نحو النص، فكلامه كله دعوة صارخة لتجاوز الجملة للنص ذلك أن النص لا يكون إلا حسب ما تقول به قوانين النحو وأصوله ومناهجه.

صحيح أنه تكلم عن نحو الجملة أيضا لكنه أكد على كونه جزء يسيرا من نحو أشمل من ذلك، ذكره حينما تناول فروق الخبر على مستوى الجملة لضرورة النظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بمعنى خاص، وهذا لعمري مما يُسهم في ثراء اللغة وتوضيح طرائقها ودقائقها في التعبير، ثم يوسع الأمر ليتكلم عما ترتبط به الجملة بغيرها من الجمل، وذلك بعد أن أتمّ الحديث عن أركانها الأساسية، وكأنه يقصد نحو ما فوق الجملة كجزء ثان(١١)، ثم حين حديثه عن الجمل ومواضع الفصل والوصل فيها ينتقل إلى جزء ثالث من أجزاء علم النحو، وهو الأساس في نحو النص باعتباره المميز بين نحو الجملة ونحو النص، حيث تحدث هنا عن جزئيات هي من صميم نحو النص، يتم فيها الربط بين متتاليات جميلة تشكل نصوصا متماسكة ومتكاملة ليتنقل إلى الجزء الرابع من علم النحو الذي يتطرق للتعريف والتنكير، التقديم والتأخير والحذف والتكرار.

وبهذه الظواهر اللغوية وعلى أساسها يقاس مدى تمايز النصوص، من خلال الأداء اللغوي فيها وحسن السبك والحبك بين جملها، يضاف لها وعي الناص(المتلفظ

بالخطاب) بترتيب كلامه حسب المعاني في النفس، فأكد الجرجاني أنّ **هذا هو مدخل الإعجاز القرآني**[١٢].

و قد يبدوا من نص الجرجاني السابق، مطابقته النظم لعلم النحو، خاصة مع استعمال أسلوب القصر، إلا أنه يجب التأكيد على الفرق بينهما عنده، فأصول النحو يعني بها قوانين التراكيب اللغوية وتنتمي لقوانين اللغة بينما «علم النحو أو النظم فهو الذي يحصر الخصائص الفنية أو الأدبية في الكلام شعرا كان أو نثرا»[١٣]. ولذلك نجد الجرجاني يتحدث عن قوانين مجملة حين كلامه عن الأصول بينما في حديثه عن علم النحو يجعل النظم متصورا على إتباع قوانينه التي تمثل نظام اللغة المستعمل من قبل الجماعة اللغوية فيتم على أساسه الاتصال اللغوي، وهذا يعني أن الجرجاني كان يقصد ما يقترب من مفهوم الكفاءة اللغوية Compétence linguistique التي يمتلكها المتكلم المستمع المثالي، حسب "نعوم تشومسكي"(Noam chomsky) التي تمكنه من إنتاج وتوليد جمل أصولية خاضعة لقواعد النحو وقوانينه، وهي الجمل التي يتحقق بها النظم باعتبارها سليمة، راعى فيها المتكلم قواعد الصحة، وتعد هذه النقطة من أهم الأفكار التي جاءت بها المدرسة التوليدية التحويلية (الكفاءة/ الأداء) ، فكان للجرجاني فضل السّبق التاريخي في طرحها بأسلوبه الخاص.

وإذا كان الجرجاني أكّد أن النظم هو وضع الكلام بحسب ما يقتضيه علم النحو فـ "لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم"[١٤].هذه المعاني التي للفكر تعلّق بها، لأنها معبّرة عن المعاني النفسية إذ "الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس"[١٥]. لذلك يجب التفريق بين النحو بالمعنى الشائع (قواعد تتحقق في الإعراب أقصى ما تفيده تقويم اللسان عند نطق الكلمات فهذه لا يتحقق على مستواها النظم)، وبين المعاني النحوية الوظيفية داخل التركيب وارتباطها بالمعنى النفسي الذي من خلاله يتم الاختيار والتأليف بين الألفاظ والعبارات وعلى أساسها يتحقق النظم.

إن معنى النظم يكمن في قصد المتكلم إلى اختيار ما يناسب أغراضه من المعاني النحوية، ويرتّبها في نفسه، ثم يبنى لها الكلمات (البناء)، ثم يرتبها (الترتيب)، منشئا

بينها العلاقات بواسطة الربط، والمطابقة والإضافة (التعليق) حتى يخرج بنظم جيد؛« فما يقصده عبد القاهر من النظّم-كما يقول الباحث الجزائري الحاج صالح عبد الرحمان- هو ما ينتظم عليه الكلام بطرق كثيرة جدا، مما يجيزه النحو، ونلاحظ أنّ كل ما هو جائز في النحو، فهو مهيّأ للمتكلم، ليستثمره بحسب ما له من أغراض، لا لشيء إلا لأنّ كل طريقة من الكلام تختصّ بدلالة خطابية خاصّة، أو بفائدة كما يقول البلاغيون، وهي **النكتة**. وهي دائما زائدة عن المعنى الوضعي لأنها عرف خاص بالاستعمال».[١٦]

وأساس العملية هو معرفة القصد والغرض، فإدراك الغرض وفهم المقصود، كما يقول **الجرجاني، أسمى من معرفة الإعراب، وهذا الذي ينبغي أن نهتم به في تعليم النحو، لذلك وجدناه يربط النحو بعلم المعاني، متجاوزا التركيز على الإعراب، وحفظ القواعد، إذ لا تفيدنا شيئا مادامت معزولة عن سياقات الاستعمال وغير موظفة، لذلك علينا تعلم النحو ومعانيه داخل التراكيب الجيدة التي تعين على تحصيل الملكة، كما بيّن ابن خلدون، وكل هذا يعدّ آراء ومبادئ تربوية تعليمية مهمّة، نحن اليوم في أمس الحاجة إليها**، كان قد بينها ابن خلدون مستعينا فيها بما عند الجرجاني الذي تجاوز بفكره الوقاد عصره، ليتقاطع مع علوم اللغة والتربية الحديثة.

وعليه فمعاني النحو[١٧] عند الجرجاني(النظم) تتكوّن من علاقات وظيفية بين التراكيب اللغوية، تمتاح من رافدين: الأوّل وضعي ذو دلالات مباشرة معجمية، تكون في الألفاظ قبل دخولها التركيب، والثاني، يضمّ معاني ثواني يكتسبها اللفظ حين دخوله في سياق تركيبي معيّن؛ حيث يتفاعل مع باقي الألفاظ والتراكيب لإنشاء معنى جديد يتوخّاه الناظم ويقصده، وهو ما يتقاطع مع كثير من الأبحاث اللسانية الحديثة ومعطياتها، مما **جعل نظرية النظم حقا مثالا حيا لتكامل المعارف وتفاعل الأنساق. تسهم في ثراء اللغة وكشف معانيها وضبطها**، من خلال ما تتيحه للمتكلم من تحليلات دقيقة لفروق الأداء الكلامي بين كثير من وجوه التراكيب في الخبر والحال والشرط ووظائف الروابط الكثيرة التي شرحها الجرجاني وبيّن أدوارها في التفريق بين المعاني الناتجة من نسج التراكيب المختلفة، وهي مدار الإعجاز القرآني.

[١١](١) هو الشيخ الإمام العلامة أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني نسبة إلى جرجان كان دائما على مذهب الشافعية فقها والأشاعرة كلاما خاشعا متورعا، حجة في اللغة، صاحب تصانيف كثيرة تشرح مؤلفات أساتذته منها: "المغني" يشرح فيه "الإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي"، "العمدة في تصريف الأفعال"، أما في البلاغة فمن أهم ما صنف فيها "إعجاز القرآن"، "أسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز" الذي كان ثمرة تراكم عدة معارف علمية تبين نضجه الفكري وذهنه الصافي العبقري.

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، اعتنى به علي محمد زينو، بيروت، مؤسسة الرسالة، ناشرون، ط١، ٢٠٠٥، ص٥٠.

(٣) دلائل الإعجاز، ٧٦.

(٤) بشير إبرير: مفهوم النص في التراث اللساني العربي، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٣، العدد الأول، ٢٠٠٧، ص١٠٦.

(٥) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٧٢.

(٦) ينظر: حسين خمري، نظرية النص، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط:١، ٢٠٠٧، ص٥٠٣.

(٧) محمود أحمد نحلة، في البلاغة العربية، ص ٣٤.

(٨) ينظر: بشير إبرير: مفهوم التبليغ وبعض تجلياته التربوية في التراث اللساني العربي، مجلة التراث العربي، دمشق، اتجاه الكتاب العرب، العدد ٩٠، ٢٠٠٣، (www.awu.dam.org).

(٩) دلائل الإعجاز، ص ٧٦.

(١٠) أحمد درويش: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، القاهرة، دار غريب، (د. ط)، ١٩٩٨، ص ٨٨.
(١١) ينظر: عمر أبو خرمة: نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى، أربد، الأردن،، ط١، ٢٠٠٤، ص٤٥ .

(١٢) ينظر: المرجع نفسه، ص ٤٦. ٤٧.

(١٣) نصر أبو زيد: مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة فصول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة، المجلد٥، العدد١، ١٩٨٤، ص ١٥.

(١٤) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٢٧١.

(١٥) المصدر نفسه: ص ٥٨.

(١٦) عبد الرحمان الحاج صالح:الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، منشورات المجمّع الجزائري للغة العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر،٢٠١٣، ص١٢٣.

(١٧) ينظر: باديس لهويمل، توخي معاني النحو عند عبد القاهر الجرجاني واللسانيات الحديثة، مجلة الآداب واللغات، جامعة الأغواط، الجزائر، العدد العاشر، ٢٠١٢، ص٠٨.